ـــة نقديَّة».. لسايمون ديورينج

في هذا الجزء. وفي نهاية هذا الجزء، نجد نقاشا حول العرق وامتداد تأثيره على الكثير من مناحي حياة الجماعات الإثنية في العالم.

٦- الجنسانية والجنوسة هما موضوع الجزء السادس من هذا الكتاب؛ حيث يعرض المؤلف لتاريخ الجنوسة في الغرب، والأسباب التي أدت للتحول في الحركة النسوية وظهور الاهتمام بقضايا الجنوسة والذكورة، كما يعرض للتيارات المعاصرة المتعلقة بالثقافة اللانمطية الجنسية.

٧- الجزء السابع من الكتاب يناقش قضية "القيمة"؛ من خلال محورين؛ هما: الثقافة العليا والدنيا، ومقال طبيعة الثقافة. وفي إطار النقاش حول الثقافة العليا والدنيا، يُقدِّم المؤلف تاريخا موجزا للعلاقات بين الثقافتين العليا والدنيا وتحولات النظرة الأكاديمية إلى الثقافة الشعبية، وعلاقة الثقافة الشعبية بالسوق. وفي مقال "طبيعة الثقافة" يتتبَّع المؤلف التفكير في الطبيعة وتعدد دلالات الطبيعة؛ حيث يقول: «إن الطبيعة، إذن، هي ما اعتاد البنيويون أن يدعوه "الدال العائم" (floating signifier) أي أنها تقوم بأنواع مختلفة من العمل الدلالي في سياقات مختلفة. أو لصياغة ذلك بشكل آخر، إنها تعد أن تكون شيئا ما خارج الاجتماعي والثقافي يمكنه بناء على ذلك قولبتها وتحديدها. لكن لا يمكن لأي شيء أن يصبح خارجيا بشكل جدالي بالنسبة إلى الثقافي والاجتماعي، على الأقل إن ما له معنى بالنسبة إلينا ينتمي إلى عملية إعطاء معنى أي إلى الثقافة. لهذا؛ فالطبيعة هي خارج للثقافة والمجتمع كما يتبدى الخارج من الداخل، ووفقا لمعايير الثقافة والمجتمع" (ص:٣٣٨).

يبلغ الكتاب من الدسامة والغنى درجة يصعب الإحاطة بجميع النقاط التي يغطيها، ولكن يمكن التوقف عند بعض المواضيع في هذه المقالة؛ وهي:

أ- عند المقارنة بين مآل المدرسة البريطانية والمدرسة الأمريكية في الدراسات الثقافية، نجد أنَّ الدراسات الثقافية البريطانية أصبحتْ الآن مجرَّد فرع من الدراسات الثقافية العالمية، وهي الآن محدودة، خصوصا في تركيزها المتزايد على بريطانيا نفسها، ومع تعولم الاختصاص وازدياد صعوبة المحافظة على النظريات الشمولية (ص:٥٠). وعند المقارنة بالدراسات الثقافية الأمريكية، نجد أنها أقل هوسا بأمريكا من هوس الدراسات الثقافية البريطانية ببريطانيا، والسبب في ذلك أنَّ "الولايات المتحدة الأمريكية قوة عالمية تجذب طلابا وأساتذة على الصعيد الدولي. وفي هذا السياق، من المهم مُلاحظة أنَّ الولايات المتحدة هي المكان الذي توجد فيه أقوى الدراسات المناطقية أي دراسة أقاليم معينة من وجهة نظر بين تخصصية توازن بين الحساسية نحو وزن التجربة المحلية وموثوقيتها كما يطرحها هاري هاروتيان مع الفائدة المحتملة بالنسبة إلى السياسة الخارجية (ص:٥٤).

ب- الوضع المحلي يُسهم في انبثاق الدراسات الثقافية، وكمثال على ذلك: هونج كونج؛ فقد كانت الدراسات المحلية مهتمة بالحالة الاستثنائية لهونج كونج من حيث

تاريخها الطويل كمستعمرة بريطانية، والتزامها الشديد بالرأسمالية وأسواق التصدير العالمية، ودورها منذ العام ١٩٩٧ كاقتصاد وسيط بين جمهورية الصين وبقية العالم؛ مما وضعها على الحدود بين الغرب وآسيا؛ فنجاح الدراسات الثقافية في هونج كونج أتى كاستجابة لحاجة المجتمع إلى تقديم نفسه إلى العالم في أثناء الأزمنة الصعبة، كي يحافظ على الرأسمال الفكري المطلوب للإنتاج من أجل أسواق تصدير الصوتي/المرئي، وبشكل لا يقل أهمية، كي يمنح نفسه الأدوات المفاهيمية التي من خلالها يكيِّف نفسه مع جمهورية الصين الشعبية أو يقاومها بحذر (ص:٥٧).

ج- يُثير المؤلف نقطة في غاية الأهمية؛ وهي: المقارنة بين الدور الذي يلعبه الصحفيون في التعليق على التغييرات اليومية في الإنتاج الثقافي، وقدرتهم على الوصول إلى شريحة واسعة من القراء غير الأكاديميين مقارنة بالأكاديميين الذين يبقون مُلتزمين بالتجريد والتحليل الأكاديميين. وهذا ما جعل الأكاديميين مُهمَّشين غير مُؤتمنين على القيادة الثقافية. ويخرج المؤلف بخلاصة مهمة من هذا الجدل بقوله: «من المستحسن بشكل خاص التعليق الإعلامي -سواء من قبل الصحفيين أو المفكرين الأكاديميين- الذي يحاول أن يربط المسائل الاجتماعية بالمسائل الثقافية؛ بطرق تشجِّع تنوع الإمكانات التعبيرية -وهذه إحدى طرق تعريف الكثير من الدراسات الثقافية- ومع كلِّ ذلك، ليست الوسائل السائدة جيدة في عمل ذلك؛ لأنَّ لها مصلحة اقتصادية في إبقاء المسافة بين النقد ومنتجات الترفيه التجاري، لكن وبشكل عام يبدو لي أنَّه يجب أن يكون الالتزام الأساسي للدراسات الثقافية هو تجاه النظام التربوي بدلا من منافسة الأكبر وهو وسائل الإعلام (ص:٦٨). وهذه الخلاصة تمنح الجانب التعليمي في الدراسات الثقافية؛ حيث إنَّ الدراسات الثقافية تأسست في ظل الجامعات والأقسام العلمية والبحثية فيها.

د- قضية الجذور في تأسيس الدراسات الثقافية هي من الأهمية بمكان كما يُؤكد على ذلك مؤلف الكتاب؛ حيث إنَّ الانتشار العالمي للدراسات الثقافية في كلا المعنيين التخصصي والجغرافي، يعني أنَّ ذلك التاريخ منتشر بشكل كبير؛ حيث لا يمكن الآن أن نجد تاريخا وحيدا للدراسات الثقافية. فديورينج هنا أنَّ أعمال هوجارت وويليمز تشكل نقطة مرجعية لمعظم الكتب التي تتحدث عن الدراسات الثقافية، ولكن كما يؤكد ديورينج (ص٦٨) على أن الإفراط في الانتباه إلى هذه النقطة يُسهم في خنق وحجب "أعرافا أخرى من دراسات ثقافية قومية أخرى، وهذه مشكلة حادة، خاصة في تلك المناطق التي لا تزال تعاني من ندرة الوصول إلى المجلات والناشرين والمؤتمرات الدولية، وكمثال على ذلك: إفريقيا وأمريكا اللاتينية. وعندما يفكر المرء عالميا لماذا لا يكون فرناندوا أورتيز منظر "التجاوز الثقافي" و"الشتات الإفريقي" وهو الكوبي المستقر في أمريكا من أسلاف الدراسات الثقافية إلى جانب ريموند ويليمز (ص:٦٨-٦٩). والهدف الذي يسعى إليه المؤلف عبر هذا الجدال هو إعادة النظر في تاريخ الدراسات الثقافية الذي كتب من وجهة نظر النزعة المركزية الأوروبية من ناحية، ومن ناحية أخرى إعادة تقييم أعمال المعلقين الثقافيين القادمين من خلفيات أخرى غير أكاديمية.

وختاما.. من المهم التوقف عند ما أشار إليه مترجم الكتاب في تصديره للكتاب؛ إذ قال "وعليه؛ فمن المفيد أن يطلع القارئ العربي على هذا الحقل المتنامي عالميا، خاصة أنه -وفقا لمعرفتي- ليس هناك سوى القليل نسبيا من الكتابات باللغة العربية في هذا المجال، ترجمة أو تأليفا. كما أن معظم القضايا المطروحة في هذا الكتاب، خاصة المتعلقة بجدال الهوية والأثر الذي تمارسه وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي والمسائل المرتبطة بالجنوسة والقومية ومقاومة الهيمنة، جميعها مسائل تقع في صلب التجربة الراهنة والحياة اليومية في معظم بلداننا العربية" (ص:١٣). فالآفاق الفكرية التي تفتحها الدراسات الثقافية تعطي دافعا قويا لمقاربة عديد من القضايا الثقافية في البلاد العربية، ثم إنَّه من المهم البناء على ما دشنه الدكتور عبدالله الغذامي في كتابه المهم «النقد الثقافي» وترجمات كتب البروفيسور الراحل إدوارد سعيد؛ فهي بلا شك مراجع مهمة في سبيل تأسيس مدرسة عربية للدراسات الثقافية.

.....

- الكتاب: «الدرسات الثقافية: مقدمة نقدية».
- تأليف: سايمون ديورينج.
- ترجمة: د. ممدوح يوسف عمران.
- الناشر: سلسلة عالم المعرفة (العدد:٤٢٥)، يونيو ٢٠١٥م.
- عدد الصفحات: ٣٨١.

awadh_mohd@hotmail.com

«الدراسات الثقافية: مقدِّمـ

عوض اللويهي

في ستينيات القرن العشرين، خرجتْ الدراسات الثقافية -خاصة في بداياتها في بريطانيا- من عباءة الدراسات الأدبية عموما، وما يُسمَّى بالليفسية -نسبة إلى الناقد إف.آر.ليفس- بشكل خاص، وقد نبع ارتباط الدراسات الثقافية بالنقد الأدبي بشكل عام من حيث اعتماد كليهما في تحليلات النصوص الأدبية والثقافية على تخصُّصات؛ مثل: علم الاجتماع، والفلسفة، والتحليل النفسي، والتاريخ، واللغويات. ولكنَّ التطورات التي حصلتْ في مجالات التفكير لما بعد الحداثية ساعدت على إحداث التحولات الجذرية في الدراسات الثقافية، وأسهمت في تبدل طرق النظر والتعاطي مع النص ومفهوم الثقافة. فلم تعد الثقافة تُعرَّف بأنها تلك الثقافة الراقية المرتبطة بالأدب، خاصة في النص المكتوب الذي اكتسب الصفة المعيارية في التراث الأدبي، بل أصبح النصُّ بالنسبة إلى الدراسات الثقافية عبارة عن موضوع نقاش. ومن هنا، فإنَّه لا يقتصر على ما هو مكتوب فقط، بل أصبح بالإمكان عد أي شيء نصًّا؛ لأنَّ الدراسات الثقافية تنظر إلى النص الثقافي على أنه نمط من التعبير، ذو مغزى شكلاً ومضمونًا عندما تُدرس كل تقاطعاته بكل تعقيداتها.

وتشتغلُ الدراسات الثقافية بدراسة وتحليل أنواع مختلفة من النصوص؛ وذلك ضمن إطار الممارسة الثقافية -العمل والإنتاج وتجليات الحياة اليومية للكائن البشري- والتي تتأثر بأبعاد اقتصادية وبالطبقة والعرق و«الجنوسة» والسياسة وبالحاجة والرغبة. وبما أنَّ الدراسات الثقافية تهتم بدارسة الثقافة أو الثقافة المعاصرة من حيث أسسها التاريخية وصراعاتها؛ فهي تقوم بتحليل النصوص من زوايا مختلفة، وتركز على المعنى الذي تُولده النصوص؛ من خلال دراسة شكلها وبنيتها وسياقاتها وأسسها النظرية، وهذا يفترض أن الدراسات الثقافية متداخلة الاختصاصات، وتقوم على مناهج ومقاربات مختلفة ومتعددة؛ منها مثلا ما يتعلق بالنظرية الاجتماعية أو النظرية السياسية والنسوية والاقتصاد السياسي، والإثنوغرافيا، والإنثربولوجيا، والمتاحف، والفن، ووسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي والأفلام.

ويأتي هذا الكتاب في إطار بَسْط فرشة معرفية واسعة المدى حول الدراسات الثقافية منذ تأسيسها وحتى الآن. ويُشير المؤلف في مقدِّمة الكتاب إلى أنَّ هذا الكتاب «ليس مُوجَّها إلى المبتدئين الخالصين (على الرغم من أنني آمل أن يجده بعض المبتدئين مثيرا)، بل هو موجَّه بشكل أكبر نحو أولئك الذين يلتمسون طريقهم إلى مدى أبعد في الموضوع بالاعتماد على دراسة أولية، وكذلك نحو المتمرِّسين الذين يُثير فضولهم ما آمل أن يكون طرحا جديدا في هذا الميدان" (ص:١٦). فالمؤلف واحد من المشتغلين على الدراسات الثقافية وله تجربة واسعة في مجال تدريس الدراسات الثقافية كتخصص أكاديمي في جامعات أسترالية وأوروربية عديدة وأمريكية أيضا. ويربط بين طريقة تأليفه لهذا الكتاب وتجربته في التدريس؛ حيث يقول: «لقد اخترت أن أنسِّق هذا الكاتب على شاكلة سلسلة مقالات حول موضوعات محددة؛ لأنَّ تجربتي في قاعة الدراسة أظهرت لي أنَّ أكثر الطرائق فاعلية في تعليم الدراسات الثقافية هي الاعتماد على اهتمامات الطلاب الثقافية. وإظهار كيف يمكن للعمل الأكاديمي أن يوسع هذه الاهتمامات، ويقدم لها دراسة نقدية. إن المقالة القصيرة هي السبيل الأمثل لفعل ذلك. بعبارة أشمل، إنَّ هذا الكتاب مُصمَّم لإدخال الطلاب إلى الدراسات الثقافية بإظهار كيفية مساعدة هذا التخصص لنا في فهم ذواتنا وتوجيهها نحو جملة واسعة من المؤسسات، ووسائل الإعلام، والمفاهيم والصيغ من التلفاز حتى التعددية الثقافية، ومن الإرث الثقافي إلى السياسة اللانمطية" (ص:١٦).

ومن المهم التذكير هُنا بأنَّ الخلفية المعرفية التي ينطلق منها هذا الكتاب هي خلفية أنجلوفونية (بريطانيا، أستراليا، الولايات المتحدة الأمريكية)، وإن كان المؤلف عند مقاربة ومقارنة الاتجاه الإنجلوفوني مع غيره من الاتجاهات، يحيل إلى جملة من المفكرين والممارسات من فضاءات ثقافية أخرى؛ مثل: الفرانكفونية، أو التجربة الآسيوية، أو أمريكا اللاتينية.

ويتكوَّن الكتاب من مُقدِّمة للمؤلف وسبعة أجزاء وخاتمة عامة. يشتمل كل جزء على عدد من المقالات القصيرة، والتي تتناول كلَّ موضوع على حدة وبشكل مكثف. وذلك على النحو اللآتي:

١- يحمل الجزء الأول عنوان «التخصص"؛ ويشتمل على أربعة مقالات، يُعنى هذا الجزء بالحديث عن الدراسات الثقافية كتخصص أكاديمي وعن ماضيه وحاضره وتفاعلاته مع تخصصات أكاديمية أخرى. كما يعرض لنشأة المدرسة البريطانية والأمريكية والأسترالية في مجال الدراسات الثقافية، ويتطرق إلى الجذور والمؤسسين وأبرز المشكلات التي تواجه الدراسات الثقافية في المحيط الأكاديمي أو علاقتها بالسياسة والاقتصاد.

٢- في الجزء الثاني من الكتاب -والمعنون بـ«الزمن»- يعرض المؤلف لجملة من النقاشات والفروقات بين التاريخ العام والتاريخ والثقافي والذاكرة الثقافية والفرق بين الماضي والتاريخ. وبعد ذلك، يشرح العلاقة بين ظهور الدراسات الثقافية وتيار الماركسية الجديد، وبعدها تيار ما بعد الحداثة وعلاقتهما بالدراسات الثقافية. ثم يعرض في نهاية هذا الجزء للحديث عن ما يسمى بـ"السياسة الثقافية».

٣- يدور النقاش في الجزء الثالث من الكتاب حول "الفضاء"، واشتمل هذا الجزء على مقالين؛ يتأمل المقال الأول في العولمة، وكيف أن الدراسات الثقافية بإمكانها التصدي لخطابات العولمة، وتأثير العولمة في تنوع وتعدد الأنماط الثقافية في العالم. أما المقال الثاني، فيدرس العلاقة والتبادلات التي يُمكن أن تتم بين الإقليمي والقومي والمحلي، وكذلك تأثير مرحلة ما بعد الاستعمار في تشكيل القومية وعلاقة ذلك بالثقافة.

٤- يُخصَّص الجزء الرابع من الكتاب للحديث عن دور وسائل الإعلام في المجال وتأثير كل من التلفاز والموسيقى ومن ثم الإنترنت والثقافة التقنية. لقد أسهم التلفاز في تطوير الدراسات الثقافية، وليست على كل حال فريدة في ذلك -كما يقول المؤلف (ص:١٧٩)- إذ يكاد يكون مستحيلا تماما تخيل السياسة الحزبية المعاصرة والرياضة والموسيقى والسينما، وبالفعل الثقافة الاستهلاكية عموما بعيدا عن تفاعلاتها المعقدة مع هذا الصندوق. وفي مقال الموسيقى الشعبية يتطرَّق الحديث إلى أنماط الموسيقى التي كانت محل اهتمام الدراسات الثقافية؛ وأبرزها: موسيقى روك آند رول، وكذلك علاقة العرق والفلكلور والموسيقى كمنتج تجاري. أخيرا يقدم مقال "الإنترنت والثقافة التقنية" جدلا حول الإمكانات التي تفتحها شبكات الاتصال العالمية في سبيل خلق علاقات ثقافية وتواصلية بين الجماعات؛ مما يُسهم في تشكيل هويات ومجموعات جديدة ووسيلة مهمة في سبيل تسهيل الحصول على كل أنواع المعلومات.

٥- محور الجزء الخامس يدور حول الهوية بما في ذلك الجدال حول الهوية وتحولاتها؛ سواء في مرحلة "ما بعد الحداثة" أو في مرحلة العولمة. والتعددية الثقافية من المواضيع الأثيرة في الدراسات الثقافية وتمت مناقشتها